

تقديم إشكالي:

إذا كانت القيم الأخلاقية التي شكلت وما زالت إحدى المبادئ الأساسية بالاهتمام الفلسفي. تتحدد بوصفها مجموعة من القواعد المعيارية المنظمة في تصرفات وسلوكات الإنسان (الفعل الإنساني) والمحددة للقيم الإيجابية إلى توجيه الفعل الإنساني الصادر عن شخص عاقل حر. واع بالقواعد الأخلاقية قصد بلوغ غاياته القصوى السامية كالسعادة والحرية. فإن الحديث عن الأساس المميز للبعد الأخلاقي الإنساني، الذي يمنح المعنى لوجوده الطبيعي وتحريره من سلطة الأهواء والغرائز والسلوكات الحيوانية. مما يدفعنا إلى طرح الإشكالية التالية:

- ما الذي يجعل الفعل الإنساني الاخلاقي خاصية إنسانية؟
- ما هو مصدر وأساس الواجب الاخلاقي؟ وما علاقته بالوعي والإرادة والمجتمع والحرية؟
- هل الخضوع للقوانين نفي لحرية الإنسان؟

المفهوم الأول : الواجب

مدخل:

➤ إذا كان الواجب الأخلاقي يدل على ما ينبغي على الشخص القيام به من أفعال وسلوكات وتصرفات... لمنح المعنى لوجوده وتحريره من سلطة الطبيعة... فإن تأرجح الفعل الأخلاقي بين الطابع الإلزامي الأخلاقي الذي تفرضه قيم المجتمع، وبين الطابع الإلتزامي الأخلاقي النابع من إرادة حرة، يدفعنا إلى طرح إشكالية العلاقة القائمة بين الواجب والإرادة والحرية والوعي والمجتمع...مما يقودنا إلى طرح التساؤل التالي:

- ما أساس ومصدر الواجب الأخلاقي؟
- هل الواجب الأخلاقي إلتزام عقلي إرادي حر أم إلتزام خارجي أم انه قدرة طبيعية تلقائية؟
- بمعنى آخر هل الواجب الأخلاقي يمثل إكراها أم حرية؟ وما مصدر الوعي الاخلاقي هل هو فطري أم مكتسب؟
- ما علاقة الواجب الأخلاقي بالمجتمع والسلطة؟ هل هو نسبي أو كوني ومطلق؟

المحور الأول : الواجب والإكراه:

التأطير الإشكالي:

إذا كان الواجب يشكل مجموع القيم أو المبادئ الأخلاقية التي تشكل منطلقا للسلوك ومحددا لغاياته. فما هي طبيعة هذا الواجب وسمته؟ هل يمثل إكراها للذات أم انه تعبير عن حرية هذه الذات وتلقائيتها؟ وما مصدر الوعي الاخلاقي هل هو فطري أم مكتسب؟ ما علاقة الواجب الأخلاقي بالمجتمع والسلطة؟ هل هو نسبي أو كوني ومطلق؟

1. أطروحة إيمانويل كانط:

يؤكد الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط في كتابه " نقد العقل الأخلاقي العملي " على أن الفعل الأخلاقي الإنساني ضرورة عقلية نابع من ذات أخلاقية إنسانية تتمتع بنوع من الحريو والاستقلال الذاتي. فأساس الواجب بالنسبة لكانط هو الإرادة الخيرة التي تتميز بنوع من الاستقلالية الشيء الذي يجعلها قادرة على التشريع لنفسها بعيدا على كل الإكراهات الخارجية. فالإنسان ذات واعية عاقلة على نحو يمكنه من أن يأتي بأفعال إرادية مستقلة وحررة لها القدرة على وضع وإصدار الأوامر التي تدفع إلى الفعل. وهذا ما يسميه كانط " الأمر المطلق " باعتباره امر تلقى به الذات إلى نفسها كأمر غير مقيد وغير مشروط بأي رغبة. حيث ان الذات تتلقاه من نفسها للقيام بالواجب بدافع الفضيلة في تجردها عن كل الغايات اللهم إلا الفضيلة كغاية في ذاتها.

2. أطروحة فريدريك هيغل:

يؤكد الفيلسوف الألماني فريدريك هيغل في كتابه " العقل في التاريخ " على ان الواجب الأخلاقي لا قيمة له بدون قيام الافراد بواجباتهم المحددة لهم من طرف مجتمعهم مما يعني بأن الواجب ذو طابع مؤسساتي. غايته مساهمة الفرد في بناء المجتمع والتطور. يقول هيغل موضحا ذلك: " إن الأفراد في عالم الواجب يقومون بالمهمة التي أسندت لهم وهم ملزمون للقيام بها وميزتهم الاخلاقية تكمن في سلوكهم امتثالاً للواجب "

➤ نفهم مع هيغل بأن الواجب مرتبط بما يفرضه المجتمع من واجبات، الواجب إكراه خارجي، وليس مرتبط بالذات في وجودها الخاص.

3. أطروحة إميل دوركايم:

يذهب إميل دوركايم إلى ان الواجب الاخلاقي يتم بصفتين فهو ذو طابع إلزامي كم انه يعتبر في الوقت نفسه مرغوبا فيه كشيء خير او طيب. فالإنسان لا يستطيع أن يقوم بعمل ما فقط لانه مطلوب منه فعله او ما هو مأمور به لذا فإن الواجب الاخلاقي ليس فقط شيئا ملزم هو أيضا شيء مرغوب فيه ، وكلتا الصفتين ترجعان إلى كون الواجب يستند إلى المجتمع كسلطة أخلاقية تتعالى على إرادات الأفراد حيث إن القيم الأخلاقية تعد قيما حضارية وثقافية.

خلاصة:

يبدوا الواجب كشيء يفرض نفسه على الذات بما هو خير. وإذا كان هناك من يرى في إلزامية الواجب تعبيرا عن الإرادة الخيرة التي يميز الإنسان كذات واعية وحررة فإن هناك من يؤكد أن الواجب مرتبط بضرورة طبيعية أو إجتماعية هي التي تجعله إلزاما أو إكراها. بل إنه يكون أيضا محط رغبة لأنه

يرتبط بالخير والفضيلة اللذين تنقاد إليهما النفس على نحو تلقائي بدافع من عملية التربية التي ترسخ قيم المجتمع والثقافة داخل الذوات الفردية.

المحور الثاني: الوعي الأخلاقي:

التأطير الإشكالي:

ما علاقة الواجب بالوعي الأخلاقي؟ هل يقوم الواجب على الواجب الأخلاقي كضمير ذاتي أم أنه يقوم على محددات خارجية؟

1. أطروحة جون جان روسو:

يؤكد روسو في كتابه " إميل أو في التربية " على أن الوعي الأخلاقي هو بمثابة وحي محايث للذات. ومعطى طبيعي غريزي. يدفع الإنسان وبشكل طبيعي تلقائي طبيعي نحو الخير وقبوله، ورفض الشر وتجنبه. وبهذا المعنى فالوعي الأخلاقي متجدر في الطبيعة الإنسانية.

يرى روسو بأن المصدر الأساس للوعي الأخلاقي إحساس غريزي داخلي يقدر به الأفعال والأشياء وهو وحده الذي يميز الإنسان والحيوان.

2. موقف إميل دوركايم:

يؤكد دوركايم في كتابه " التربية الأخلاقية " على أن المصدر الوحيد للواجب الأخلاقي هو المجتمع. لكونه يشكل قوة وسلطة أخلاقية يعمل من خلال التنشئة الاجتماعية على ترسيخ نماذج الثقافة. وبذلك يكون المجتمع هو السلطة المتحكمة في أفرادها حسب تعبير " دوركايم " إن الواجب إذن هو ترديد لصوت المجتمع الأمر وصدى له.

3- أطروحة نتشه:

إن الإحساس بالواجب الأخلاقي والوعي به يتسم بطابع مأساوي نظرا لارتباطه دائما بممارسة العنف والقسوة على الفقراء والضعفاء من طرف الاغنياء والأقوياء. فالوعي الأخلاقي ليس سوى نتيجة لتلك العلاقة التجارية بين الدائن والمدين والتي عنها نشأت فكرة " الواجب ".

خلاصة للمحور:

ينظر إلى الوعي الأخلاقي كما لو كان قائما في صورة ضمير باطني وفردى يتحدد بصفة كونية متعالية ومطلقة على نحو يجعل من الواجب الأخلاقي يقوم على ما هو داخلي وذاتي. لكن كون الأفراد أعضاء في مجتمع وضمن ثقافة معينة يقتضي أن يعتبر " الوعي الأخلاقي " كنتاج محدد موضوعيا في تكونه واشتغاله بالشروط الاجتماعية والتاريخية التي تتحكم في الفاعلية الإنسانية كفاعلية أخلاقية غير ممكنة. إلا في إطار نظام اجتماعي وثقافي هو الذي يجعل للناس مصلحة ذاتية في السلوك الأخلاقي في صدوره عن الإحساس بالواجب كتعبير عن مجموع القيم السارية في وسط اجتماعي وثقافي معين.

المحور الثالث: الواجب والمجتمع:

الاطار الإشكالي:

- ما علاقة الواجب بالمجتمع؟
- هل الواجب قائم على الضمير الفردي؟ أم انه مرتبط بالمجتمع في خضوعه للتعدد والتغير؟

1. موقف هنري برغسون:

يرى برغسون ان الواجب كسلطة اخلاقية يرتبط بالعود على الاستماع إلى الآباء الذين لا يصرون أوامرهم عن أنفسهم بل عن سلطة المجتمع الذين ينوبون عنه. فالمجتمع في قيامه على إرادات منتظمة بواسطة الواجب الأخلاقي التي تلعب فيه العادة دور الضرورة التي تخضع لها الكائنات الطبيعية. وذلك بشكل يجعل الحياة الاجتماعية تبدو كنسق من العادات الراسخة التي تستجيب بالضرورة لحاجات الجماعة مما يجعل الاخلاق وثيقة الصلة بعادات الناس في مجتمعاتهم الخاصة.

2. موقف جون راولز:

يربط الواجب بالمجتمع من جهة ان هناك واجبا للتضامن بين الاجيال. إذ يبدو ان الاجيال اللاحقة تستفيد من عمل الأجيال السابقة دون ان تؤدي الثمن المناسب. ولهذا فإنه إذا كان على الأجيال اللاحقة أن تستفيد من أعمال الأجيال السابقة فإنها تصير ملزمة بواجب المساهمة في التوفير الذي يضمن نوعا من التراكم يمكن حقوق الاجيال القادمة, وبالتالي فإن المجتمع مطالب بترسيخ مؤسسات عادلة تكفل التمتع بالحريات الأساسية وتسمح بقيام المواطنين بواجبهم في التضامن مع الاجيال القادمة من خلال التوفير الذي ينتجه نظام المجتمع كنظام للتعاون المنصف بين كل اعضائه

3- موقف سيجموند فرويد:

يؤكد فرويد انطلاقا من دراسته التحليلية النفسية لأفعال الذات على أن الأخلاق جزء لا يتجزأ من الجهاز النفسي المتمثل أساسا بالآنا الأعلى (سلطة أخلاقية خارجية الذي يعتبر بالنسبة للذات قطب المراقبة والممانعة الصارمة على غرائز الهو اللاشعورية التي يسعى الآنا جاهدا وبأمر من الآنا الأعلى على تحقيقها وإشباعها. يقول فرويد " إن الآنا يقوم في العادة بتنفيذ عملية الكبت في خدمة الآنا الأعلى وبأمر منه" وبهذا المعنى يمثل الآنا الأعلى الجانب الأخلاقي وسلطة المجتمع والمصدر الأساس للواجب الأخلاقي.

خلاصة:

إن غاية الواجب الأخلاقي سواء في علاقته بما هو اجتماعي أو بما كوني هي تنضيم السلوك الإنساني بشكل يمكنه من بلوغ أهداف نبيلة، ومن خلق توفيق يسمح بتحقيق هذا الواجب بشرط توفر الحرية.

المفهوم الثاني: الحرية:

التأثير الإشكالي للحرية:

إذا كانت الحرية كقيمة أخلاقية وسياسية تتحدد بوصفها قدرة الفرد على اختيار غاياته وسلوكاته وفق إرادته الخاصة دون تدخل عوامل وإكراهات خارجية تؤثر في تلك الإرادة. فإن الحديث عن مدى حرية الفعل الإنساني في ظل القوانين والاحتميات الطبيعية والاجتماعية والنفسية... يدفعنا إلى طرح التساؤلات التالية:

- من أين يستمد الفعل الإنساني الحر مشروعية أفعاله؟ هل من إرادة الذات أم من قواعد وقوانين خارجية؟
- هل الحرية تعني الإعتاق التام من كل أشكال الحتمية؟ أم انها الخضوع التام للحتمية؟ أم التكيف معها؟
- هل تقوم الحتمية على إقصاء مطلق للحرية؟
- هل تتحدد الحرية كعقوبة وتلقائية أم لا؟
- هل أفعالنا نتاج لإرادتنا أن للضرورة؟
- هل تتعارض الحرية مع القانون؟

المحور الأول: الحرية والحتمية:

بدا التفكير الفلسفي في مفهوم الحرية مع فلاسفة اليونان، حيث ان هناك من اعطى حق الحرية داخل الحياة السياسية في المدينة للأسياد وحرّم منها العبيد (أفلاطون، أرسطو...) وذلك قبل أن يتجه التفكير في الحرية مع الأبيقورية والرواقية نحو علاقتها بالضرورات الداخلية (الغرائز)، والخارجية (قوانين الطبيعة). فلم يعد الحر هو من تخلص من سيطرة السيد بل من تحرر من إكراهات الغرائز والرغبات . وعاش وفق نظام العقل والطبيعة. فهي حرية داخلية يشعر بها الإنسان ويعيشها رغم خضوعه لقدرية مطلقة. وقد كشف العلم الحديث عن حتميات مختلفة يخضع لها الإنسان وتشرط وجوده (بيولوجية، اجتماعية، ثقافية...)

- فهل يمكن للإنسان أن يتحرر من تلك الحتميات؟
- هل هذه الحتميات تنفي حريته أم أنه بحاجة إليها ، وأن الوعي بها هو المنطلق لتحقيق حريته؟

1. أطروحة الفلاسفة المسلمون: الجبرية والمعتزلة والأشاعرة + ابن رشد

لقد عالج المفكرون المسلمون في العصر الوسيط مسألة الحرية من خلال التفكير في علاقة الفعل الإنساني بالفعل الإلهي. حيث ذهب الجبريون إلى القول بأن الإنسان مجبر ومسير في أفعاله، والمعتزلة إلى القول بأنه مخير، في حين أن الأشاعرة قد حاولوا التوفيق بين هذين الموقفين عن طريق نظرية الكسب إذ أنهم قالوا أن الإنسان لا يخلق أفعاله بل يكتسبها.

2. أطروحة ابن رشد:

انتقد ابن رشد التصور السابق لعلماء الكلام واعتبر أن لا يمكن تصور الفعل الإنساني حراً بشكل مطلق، إنع فعل يتركب من حرية الاختيار والقدرة والإرادة. إلا أنه مشروط ومحدود بقوانين الطبيعة. وأيضاً محدود بقدرات البدن.

3. أطروحة عبد الله العروى:

يرى أن العلم الذي طوره الإنسان في العصر الحديث لتحريره من قيود الطبيعة، سرعان ما أصبح يقلص حرية الإنسان ويضع وسائل للتحكم فيها. فالعلم إذن قد يخدم الحرية كما أنه قد يحاصرها ويقضي عليها.

4. أطروحة باروخ اسبينوزا:

يؤكد الفيلسوف الهولندي اسبينوزا في كتابه " الأخلاق " على أن الإنسان ليس حراً في أفعاله واختياراته. فالفرد يضمن أن أفعاله حرة لأنه يعيها لكنه في واقع الأمر يجهل الأسباب التي تدفعه إليها. وبذلك تكون الحرية الإنسانية خاضعة لمنطق الأسباب والمسببات التي ليس سوى منطق الحتمية والضرورة.

خلاصة:

يتضح بأنه هناك إقرار بوجود حتميات تحد من حرية الفرد وتتحكم في سلوكاته، لكن هناك إقرار أيضاً بحرية الفرد باعتباره ذاتاً يمكنها ان تعطي لوجودها معنى وان تحدد لحياتها إتجاهاً تختاره بحض إرادتها. فهل فعلاً يمكن للذات الإنسانية أن تتدخل بإرادتها وحريتها في اختيار أفعالها وتحقيقها أنهما محكومة في ذلك بحتميات ؟

المحور الثاني: حرية الإرادة:

الطرح الإشكالي:

الإنسان من حيث المبدأ ذات حرة يقوم بأفعاله بإرادته. لكم المؤكد من الناحية العلمية هو خضوع الإنسان لعدة حتميات بيولوجية، ونفسية، وإجتماعية، وتاريخية، فهل أفعال الإنسان تعبير عن إرادته الحرة؟ أم أنها نتاج لسلسلة من الحتميات؟ بتعبير آخر هل أفعال الإنسان نتاج لإرادته ام للضرورة؟

1. موقف ابن باجة:

يرى ابن باجة بأن أفعال الإنسان تكون إنسانية حين تنبع من الإختيار والإرادة العاقلة. أي من التفكير والروية. وتكون بهيمية حينما تصدر عن الانفعال النفسي. أي عن ردود أفعال خالية من التدبر والترتيب. لهذا فقصدية الفعل الإنساني هي المسؤولة عن جعله فعلا إنسانيا أو بهيميا.

2. موقف جون بول سارتر:

يرى سارتر ان الحرية هي ماهية الإنسان وقدره. أي أنها الشيء الذي لم يختره. ومادام أن وجود الإنسان سابق لماهيته فهو يوجد أولا ثم يختار ما يريد ان يكون عليه. وماهيته تصير مشروعا يتحقق باستمرار. إلا ان هذا المشروع يتعرض للتهديد من طرف الآخرين. فالحرية ليست هي الإرادة، لأن الحرية تكون غير معلولة وتقوم على الانخراط في فعل الاختيار. اما الإرادة فتكون مقيدة بالاختيارات التي تعد عللا وأسبابا لها. فيصير الفعل معلولا وحتميا.

3-موقف ديكارت:

يرى ديكارت ان الإنسان كائن حر في اختياراته وحرية تقوم على إرادته، وإن كانت إرادة الإنسان غير مطلقة كإرادة الخالق. يقول ديكارت " تقوم الإرادة أو حرية الاختيار على استطاعتنا أن نفعل الشيء أو ألا نفعله. بعبارة أدق أن نتصرف بمحض اختيارنا دون ان نحس بضغط من الخرج يملي علينا ذلك التصرف"

4-موقف كانط: يرى أن كل كائن عاقل يتمتع بحرية الإرادة والقدرة على القيام بالواجب الأخلاقي ولا معنى للفعل في غياب الحرية والإرادة.

خلاصة:

من خلال ما سبق يتضح بأن الإنسان حر ومقيد، بمعنى أنه حر ومريد. لكنه كذلك خاضع للعديد من الحتميات والقوانين التي تحد من حريته. من هنا نتساءل ما علاقة الحرية بالقانون؟

المحور الثالث: الحرية والقانون:

التأطير الإشكالي:

تبدوا الحرية المطلقة تهديدا لكل فهي حرية متوحشة لا يمكن أن تمارس إلا في حالة متعالية أو متوحشة. في المقابل قد يبدوا الخضوع للقوانين نفي لحرية الإنسان. فهل الأمر كذلك فعلا؟ هل يمثل الخضوع للقوانين التي شرعناها إستعبادا أم حرية؟ بتعبير آخر هل تتعارض الحرية مع القانون؟

أطروحة جون جاك روسو:

يؤكد روسو بأنه لا وجود قطعا لحرية من دون قوانين كما أنه لا يوجد شخص فوق القوانين. وحتى في حالة الطبيعة لا يكون الإنسان حرا إلا عندما يخضع للقانون الطبيعي الذي يسير كل شيء. إن الشعب الحر بنظر "روسو" يكون خاضعا لكنه لا يكون خادما لغيره. إذ أنه لديه رؤساء، لكن ليس لديه أسياد.

أطروحة مونتسكيو:

لا يمكن للحرية بنظر مونتسكيو أن تقوم إلا على القدرة على فعل ما يجب أن نريده وان لا يجبر على فعل ما لا نريده. فالحرية هي الحق في القيام بكل ما تسمح به القوانين، ولهذا فإن الحرية السياسية بنظره لا توجد إلا في الحكومات المعتدلة.

أطروحة طوماس هوبز:

يرى طوماس هوبز ان الحرية هي التي يضمنها القانون وينظمها لصالح الفرد والجماعة، لأن حرية الفرد المطلقة تمنحه هامشا من الحرية، لكنها تمنح للآخرين قوة إيدائه كما يريدون .

إستنتاج:

يبدوا إذن أن الحرية مطلب أساسي وخاصة محققة لوجود الإنسان ككائن يتميز بالإرادة، لكن هذا لا يعني أن تكون حرية متوحشة بل منظمة بقوانين تضمن حرية الجميع، لكن شريطة ألا تكون هذه القوانين جائرة ومتسلطة.